الفصل التاسع

الحاجة إلى الإصلاح

من أين نبدأ؟

إن الدعوة إلى الإصلاح الشامل في البلدان الإسلامية لعكس دائرة السببية الدورية، التي أطلقها انتهاء المحاسبة السياسية واشتداد الحكم الاستبدادي، تثير تلقائيّاً السؤال الهام: من أين نبدأ؟ إن أفضل مكان نبدأ منه هو حيث بدأ النبي ﷺ نفسه بإصلاح البشر، فهم يقومون بدور المحرك في نهضة أي حضارة أو سقوطها. وبالرغم من الحاجة إلى إيلاء الأولوية القصوى لهم، فإن هذا لا يعني ضرورة أن العوامل الاجتماعية-الاقتصادية والسياسية، التي تعرضت إلى الفساد عبر القرون من خلال عملية السببية الدائرية لا تحتاج إلى اهتمام متزامن مع إصلاح البشر.

أولاً: الإصلاح الأخلاقي

صلب المشكلة هو كيف يمكن إصلاح الأفراد بحيث يتحولون إلى بشر أفضل، ويصبحون مصدر نعمة وبركة لمجتمعهم، وللإنسانية جمعاء، تمشياً مع رسالة النبي الواردة في القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: 107]. لهذا الغرض، لابد من تغيير شخصيتهم وقدرتهم ودوافعهم ووجهة نظرهم الفكرية، بإيلاء الحد الأقصى من الاهتمام إلى تنشئتهم الأخلاقية وتعليمهم. وهذا ما

حاول فعله جميع رسل الله، بمن فيهم إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، عليهم الصلاة والسلام. [1]

إن هذا التأكيد على التنشئة الأخلاقية تبدو غريبة ولا داعي لها في بيئة اليوم العلمانية والليبرالية، غير أن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها، أن النظرة الدينية الكونية، هي التي تنطوي على إمكان المساعدة في تعزيز جميع صفات الشخصية اللازمة، من أجل تحقيق التنمية المستدامة وتحقيق الرؤية الإسلامية للعدل والأخوة والرفاه للجميع. فقد يتعذر تأمين رفاه الجميع إذا كان كل شخص ملتزماً بخدمة مصلحته الخاصة، ولا يرغب في القيام بالتضحيات التي يتطلبها الرفاه للجميع.[2]

إن النظرة الكونية الدينية، المقترنة بالحساب في الآخرة وقدسية القيم الأخلاقية، هي التي تستطيع حفز الأفراد على القيام بالتضحية اللازمة. وهذا ما تحققه النظرة الكونية الدينية عبر إعطاء خدمة المصلحة الخاصة منظوراً بعيد المدى في هذه الدنيا وفي الآخرة. فكلما ضحّى الأفراد بمصلحتهم الخاصة للوفاء بالتزاماتهم الأخلاقية والاجتماعية- الاقتصادية والسياسية في هذه الدنيا -الزائلة على كل حال- ازداد تحقق مصلحتهم الخاصة في الآخرة، وهي الخالدة. لذا، فإن زيادة الوعي الأخلاقي للناس أمر لا مفر منه. في هذا الصدد، يؤكّد القرآن بوضوح

---

(1) القرآن لا يذكر أيّاً من الرسل الذين أرسلهم الله إلى شعوب غير شعوب الشرق الأوسط. فأسماؤهم لم تكن معروفة للناس هناك، فالقرآن ليس دائرة معارف. على أنه يقول بوضوح: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾ [النحل: 36]، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر: 78]. وفي حديث ضعيف للنبي ﷺ لقد أرسل حوالي 124000 من الرسل إلى مختلف البلدان في أزمنة مختلفة من التاريخ (أورده المودودي في تفسيره للآية 51 من السورة 19، المجلد 3، ص. 72)، انظر:

- Mawdudi, Sayyid Abul A`la. *Tafhim al-Quran*. Lahore: Maktabah Ta'mir-e-Insaniyat, 1962, Volume 3, p. 75.

(2) ان التأكيد في علم الاقتصاد على خدمة المصلحة الخاصة لم يكن ليصبح واقعاً عمليّاً في الغرب. بل إنه خدم بوصفه أداة تحليلية؛ فقد ظلت القيم المسيحية تؤثر في السلوك العام للناس بالرغم من أن أثرها قد انخفض تدريجيّاً، على ما يبدو.

دور الإيمان والإصلاح الأخلاقي والعدل في نهضة المجتمعات وسقوطها.[3]

إن التاريخ مفعم بالأمثلة عن الحالات التي وصل فيها مجتمع من المجتمعات إلى ذروته نتيجة الإصلاح الأخلاقي؛ والتقدم الفكري والاقتصادي يتبع في العموم الإصلاح الأخلاقي، وقد أصاب كرويبر (Kroeber) حين قال: "لا يحضرني شعب واحد طوّر أولاً علماً أو فلسفة أو فنّاً راقياً، ثم كون نمطاً دينيّاً."[4] وقد أكد شويتزر (Schweitzer) أنه "إذا لم يوجد الأساس الأخلاقي، فإن الحضارة تنهار، حتى عندما تكون أكثر القوى المبدعة والفكرية تقوم بدورها في اتجاهات أخرى."[5] لذا فهو يرى أن "السيطرة الأخلاقية على نزعات البشر أهم بكثير من السيطرة على الطبيعة"[6]. وقد جادل توينبي Toynbee أيضاً بأن "السيطرة على الطبيعة غير البشرية، -وهذا مافي مقدور العلم-، يكاد يكون أقل أهمية بكثير بالنسبة للإنسان من علاقاته مع نفسه، ومع أقرانه من البشر ومع الله."[7] وفي الفترة الأقرب عهداً، أكد نايجل لوسون (Nigel Lawson) وزير الخزانة البريطاني، 1983-1989م، أنه "ما من نظام سياسي أو اقتصادي يمكن أن يبقى طويلاً إلا إذا استند إلى قاعدة

(3) انظر على سبيل المثال، قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، [الحديد:25]، وقوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾، [طه:111]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾، [الأعلى:14]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾، [الشمس:10]، وقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، [العصر:1-3].

(4) Kroeber, Alfred. *Configurations of Culture Growth*. Berkeley: University of California Press, 1994, p. 803-4.

(5) Schweitzer, *The Philosophy of Civilization*, p. xii; see also Toynbee, *A Study of History*, abridgement by D. C. Somervell, Volume 2, p. 364.

(6) Schweitzer, *The Philosophy of Civilization*, p. 22-23, 38, 39, 91.

(7) Toynbee, *A Study of History*, abridgement by D. C. Somervell,Volume 2, p.99.
وفي الواقع فإن توينبي يذهب إلى حد القول بأن "انتصاراً ساحقاً للعلم على الدين سيشكل كارثة للطرفين؛ إذ إن العقل فضلاً عن الدين هو واحد من القدرات الأساسية للطبيعة البشرية"، المصدر ذاته، ص. 99.

أخلاقية."[8] وقد جادل أيضاً فريدمان (Friedman) –وهو أستاذ في جامعة هارفارد، في كتابه الذي صدر حديثاً– بأن النمو الأخلاقي والنمو الاقتصادي متلازمان ويدعم بعضهما بعضاً.[9] والأدلة التجريبية أثبتت الأثر الإيجابي للورع الديني على نطاق واسع التنوع من النتائج.[10] وهذا دليل واضح للنظرة الكونية الدينية، التي يمثلها ابن خلدون، وعدد من العلماء الغربيين، وهي النظرة التي حاولت حركة التنوير تقويضها، وحققت نجاحاً عابراً في محاولتها. ومن دواعي السرور أن عودة النظرة الكونية الدينية تكتسب قيمة يوماً بعد يوم.

1 – العدل والتنمية وتخفيف وطأة الفقر

قد يكون من الصعب الارتقاء بالمستوى الأخلاقي للناس ما لم يتم تأمين العدل أيضاً؛ فقد أصاب الماوردي (توفي 450/ 1058)؛ إذ قال إنه "لا يوجد أي شيء يدمر العالم أسرع من الظلم."[11] فالعدل، بالرغم من كونه سمة مميزة لتعاليم الإسلام، مفقود بشكل واضح في البلدان الإسلامية ويشكل باعثاً على كثير من المشكلات الداخلية والخارجية. إن أول أولويات أي برنامج يرمي إلى تأمين العدل، يجب أن يكون القضاء على الفقر، الذي يقود إلى العجز والبؤس

(8) Lawson, Nigel. "Some Reflections on Morality and Capitalism." In Samuel Brittan and Alan Hamlin, (eds.), *Market Capitalism and Moral Values: Proceedings of Section (Economics) of the British Association for the Advancement of Science*, Keele, 1993, Aldershot, UK: Edward Elgar, 1995, p. 35.

(9) Friedman, Benjamin. *Moral Consequences of Economic Growth*. New York: Knopf, 2005.

(10) Gruber, Jonathan. *Religious Market Structure, Religious Participation, and Outcomes: Is Religion Good for You?*. *NBER Working Paper* 11377, May, 2005, p. 1.; See also Ellison, Christopher. "Religious Involvement and Subjective Wellbeing." *Journal of Health and Social Behavior*, 31:1, 1991, p. 80–99.; Barrow, Robert, and Rachel McCleary. "Religion and Economic Growth." Harvard University, April, 8, 2003.; and Iannaccone, Laurence. "Introduction to the Economics of Religion." *Journal of Economic Literature*, September, 1998, p. 1465–1496.

(11) الماوردي. **أدب الدنيا والدين**، مرجع سابق، ص125.

والجريمة، وكما يقول النبي ﷺ "كاد الفقر أن يكون كفرًا."[12] على أنه قد يتعذر القضاء على الفقر دون الاستخدام الفعال لجميع الموارد المتاحة لتسريع تقدم التنمية الريفية، فضلاً عن التنمية الحضرية، وتعزيز العمالة وفرص العمالة الذاتية.

2 – نشر التعليم والتمويل المصغّر

إن الجهد الإيديولوجي المفرط في فرض الليبرالية الجديدة وأصولية السوق على البلدان النامية الذي تزيّا بزي "إجماع واشنطن" يعد فاشلاً.[13] فقد دلت الأدبيات حديثة العهد المتعلقة بالتنمية أنه لا يوجد مجموعة قواعد عامة متفردة يمكن للبلدان النامية أن تتبعها بغية تسريع التنمية.[14] بوسع البلدان الإسلامية اختيار الاستراتيجية التي تناسبها حسب أهدافها وظروفها.[15] وفي الوقت الذي يتعين فيه بذل كل جهد لتسريع التنمية، فإن التركيز يجب أن ينصب على تأمين العدل. وهذا سيبقى أملاً زائفاً إذا لم يتم تخفيف وطأة الفقر، ولم يتم تقليص حالات عدم المساواة الفادحة في الدخل والثروة. وتتمثل اثنتان من أهم العقبات التي تعترض طريق تحقيق هذا الهدف في: التكلفة الباهظة للتعليم، والتمويل الصغير. لذا، فإنه من المهم أن يتاح التعليم عالي الجودة للفقراء إن لم يكن مجاناً فبأسعار ميسورة، وذلك بغية ترقية جانبهم الأخلاقي والفكري، وتعليمهم

---

(12) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أنس بن مال أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: "كاد الفقر أن يكون كفرًا ..."، انظر:

- البيهقي، أحمد بن الحسين. **شعب الإيمان**، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، بيروت: دار الكتب العلمية، ط. 1، 1410هـ، ج5، ص267، الحديث رقم 6612.

(13) Rodrik, Dani. "Goodbye Washington Consensus, Hello Washington Confusion? A Review of the World Bank›s Economic Growth in the 1990s: Learning from a Decade of Reform." *Journal of Economic Literature*, December, 2006, p. 974.

(14) World Bank. Economic Growth in the 1990s, p. xiii.

(15) Chapra, M. Umer. *Islam and Economic Development*. Islamabad: The International Institute of Islamic Thought, 1993,; Chapra, M. Umer. *The Future of Economics: An Islamic Perspective*. Leicester, UK: The Islamic Foundation, 2000.

المهارات المطلوبة. ولا يقل عن ذلك أهمية توفير فرص الحصول على القروض الصغيرة الميسرة قليلة الكلفة ليتمكنوا من إنشاء مشاريعهم الصغيرة

وبما أن انحطاط التعليم والبحث العلمي والتكنولوجي من أهم أسباب انحطاط المسلمين، فمن الواجب إزالة الفجوة القائمة في هذه الميادين بين البلدان الإسلامية والبلدان المتقدمة، عبر توفير التعليم عالي الجودة ومرافق البحث العلمي وتسهيلاته، من خلال انتشار المدارس والكليات والجامعات حسنة التجهيزات في أنحاء البلاد. في هذه العملية يتعين إيلاء اهتمام خاص لضمان أن يكون التعليم متاحاً لكافة شرائح المجتمع، لا للأغنياء فحسب. ومن سوء الحظ أن خصخصة التعليم قد جعلته باهظ التكلفة، فأصبح بعيد المنال على الفقراء. فإذا لم يتم إصلاح هذا الوضع، فإن الأغنياء هم الذين سيحصلون بالدرجة الأولى على التعليم العالي. وهذا سوف يزيد حالات عدم المساواة في الدخل والثروة بدلاً من خفضها، ويؤدي إلى تفاقم التوترات والاضطرابات السائدة في المجتمعات الإسلامية. لذا، من الواجب خفض تكلفة التعليم للفقراء. ولن يكون هذا ممكناً من دون زيادة المعونات الحكومية للتعليم زيادة جوهرية، وتنظيم جمع الزكاة وتوزيعها، وكذلك الأوقاف والمساهمات الخيرية الخاصة الأخرى. فإذا كان العامل البشري هو الأهم للتنمية، فلا يوجد ما يمنع من تخصيص نسبة أكبر من موارد الحكومة من أجل نشر التعليم، الذي يبدو أنه واحد من أعظم ضحايا انعدام وجود المحاسبة السياسية في العالم الإسلامي.

ويتمثل شرط أساس مهم وحتمي من أجل تخفيف وطأة الفقر، بإتاحة التمويل الصغير للفقراء من أجل تمكينهم من تحقيق حلمهم في إقامة مشاريعهم الصغيرة. ويبدو أنه لم يثبت أن التمويل الصغير الذي يستند إلى الفوائد طريقة فعّالة لمساعدتهم في هذه المهمة. لقد أظهرت دراسة جاءت في الوقت المناسب (2007)، قام بتحريرها الدكتور قاضي خلق الزمان أحمد، رئيس جمعية بنغلاديش الاقتصادية، بشأن عمل مؤسسات التمويل الصغيرة الرئيسة في بنغلاديش، أن التحسينات المطلوبة لم تتحقق في حياة المقترضين في معظم الحالات. فسعر

الفائدة الواقعي يبلغ 30 % إلى 45 % ويسبب مشقة للمقترضين في خدمة الدَّين؛ فهم مضطرون في كثير من الأحيان إلى التضحية بالاستهلاكات الأساسية وإلى الاقتراض من المرابين. وهذا يغرقهم -دون قصد منهم- في حلقة لا نهائية من الدَّين الذي يكّرس الفقر، ويؤدي -في خاتمة المطاف- إلى ازدياد الاضطرابات والتوتر الاجتماعي.[16] لذا، من الأهمية بمكان، في الوقت الذي تم فيه الاحتفاظ بالآلية المبتكرة للإقراض، -التي تستند إلى المجموعات التي اعتمدها بنك غرامين Grameen Bank، ومؤسسات أخرى في بنغلاديش- أن يقدَّم التمويل الصغير إلى أكثر الفقراء فقراً على أساس إنساني لا ينطوي على الفائدة. وهذا سيجعل من اللازم تحقيق التكامل بين التمويل الصغير والزكاة ومؤسسات الأوقاف. وأما المقتدرون فيجب تعميم عمليات المشاركة في الربح والخسارة وأنماط التمويل الإسلامي المبنية على الإيجار. غير أن التمويل الصغير قد لا يكفي بحد ذاته، فينبغي أيضاً توسعة التدريب المهني إلى جانب البنية الأساسية ومرافق التسويق لدعم المشاريع الصغيرة[17].

ومع أن تخفيف وطأة الفقر قد يكون، إنجازاً عظيماً، إلا أنه لن يكفي لتحقيق أُخوة البشر التي يدعو إليها الإسلام، كما يتعين تحقيق توزيع عادل للدخل والثروة من أجل تأمين المساواة الاجتماعية والكرامة والاحترام لكل فرد في المجتمعات الإسلامية. فإن العدل والترقية الأخلاقية والاجتماعية – الاقتصادية والأخوة، كلها عوامل مترابطة؛ إذ إنه قد يتعذر تحقيق تحسين مستدام في أحد هذه العوامل دون تحقيق تحسين مستدام في المجالات الأخرى.

---

(16) Ahmad, Qazi Kholiquzzaman (ed.). *Socio-Economic and Indebtedness-Related Impact of Micro-Credit in Bangladesh*. Dhaka: Bangladesh Unnayan Parishad, 2007. p. xix-xvii and 32..

(17) للتفاصيل، انظر:

- Chapra, M. Umer. "Challenges Facing the Islamic Financial Industry." In M. Kabir Hassan and Mervyn Lewis (eds.), *Handbook of Islamic Banking*, Northampton, MA, USA: Edward Elgar, 2007, p. 336-338.

3 - إصلاح جميع المؤسسات

قد يكون من الصعب تحقيق هذا التحسين الإجمالي في وضع البشر دون إصلاح جميع المؤسسات التي تؤثر في السلوك البشري. وأهم هذه المؤسسات الأسرة؛ إنها المؤسسة الأولى والأكثر أهمية في حياة الطفل فيما يتعلق بالتنشئة الأخلاقية والتعليم[18]. فالأب والأم هما المعلمان المخلصان للطفل منذ البداية، وإذا لم يكونا مثقفين ومتعلمين، وإذا لم تكن شخصيتهما تعكس القيم الإسلامية، فقد لا يستطيعان القيام بدورهما على نحو مُرضٍ. إن محبة الأبوين وعاطفتهما تجاه الأبناء، ولا سيما الأم، أمران حاسمان من أجل تنشئة جيل جديد يكون مستقيماً أخلاقيّاً، ونشيطاً فكريّاً، ولديه شعور بالمسؤولية الاجتماعية، ومتعاوناً ويهتم بالآخرين. فإذا فشلت الأسرة في القيام بهذا الدور، فما من أحد يستطيع أن يحل مكانها. ولهذا السبب فإن الإسلام، شأنه في ذلك شأن الأديان الأخرى، أكّد على سلامة الأسرة ووجود بيئة يسودها الحب والعطف بين الأبوين، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: 21]

إن دور الأسرة بحاجة إلى تعزيز من المؤسسات التعليمية، من أجل توفير تعليم عالي الجودة في جميع ميادين المعرفة، لا سيما في مجال العلوم والتكنولوجيا، لتمكين المجتمعات الإسلامية من المنافسة الناجحة في الساحة الدولية، وتحقيق معدل معقول من النمو الاقتصادي. وفي الوقت الذي أدت فيه المؤسسات التعليمية دوراً حاسماً في القرون الأولى من التاريخ الإسلامي، نتيجة الأعمال الخيرية الخاصة والدعم المجزي للحكومات، فإنها الآن عاجزة عن القيام بذلك الدور. ويتمثل أحد الأسباب في أن دعم الحكومة للتعليم والبحث

(18) للاطلاع على مناقشة قيمة بشأن الحاجة إلى التنشئة الأخلاقية والدور الحاسم للأسرة في ذلك. انظر:

- أبو سليمان. **أزمة العقل المسلم**، مرجع سابق.
- أبو سليمان. **أزمة الإرادة والوجدان المسلم: البعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة**، مرجع سابق.

العلمي قد انخفض كثيراً جراء اللاشرعية السياسية، وعدم التقدير الكافي للدور الحاسم للتعليم في التنمية، والإنفاق المفرط على الكماليات وعلى الدفاع. وقد كان لإهمال التعليم الأخلاقي والمادي أثره في الأسرة أيضاً. ولذلك، فإنها غير قادرة على القيام بدورها الفعال في التنشئة جراء عدم تعليم الأبوين، لا سيما الأمهات.

وتحتاج المؤسسات الأخرى إلى التعزيز للنهوض بدورها المهم في التنشئة والتعليم، بعد أن أصبحت غير فعالة، فمن هذه المؤسسات المساجد، التي لها دور حاسم ينبغي أن تقوم به في المجتمعات الإسلامية، ولكنها الآن لا تستطيع فعل ذلك، لأن أئمة المساجد، -الذين من المفترض أن يعدّوا قدوة للآخرين ويقومون بدور فعّال في التربية الأخلاقية وترقية شخصية جماعة المصلين- ليسوا مؤهلين تأهيلاً جيداً من حيث التعليم ليقوموا بهذا الدور فحسب، بل إنهم أيضاً معزولون عن جماعة المصلين، فهم يصلون إلى المسجد قبيل إقامة الصلاة ويغادرونه بعد نهاية الصلاة. وهم عادة لا يتفاعلون مع جماعة المصلين، وإذا فعلوا، فإنهم لا يستطيعون تعزيز وعيهم الأخلاقي، لأن رؤيتهم للإسلام، في كثير من الأحيان، محدودة جدّاً. بل إنها كثيراً ما تكون تقتصر على أداء الصلوات وتطبيق بعض القواعد المتعلقة بالمظهر الخارجي، ثم إن وضع الأئمة الاقتصادي الضعيف، إلى جانب مركزهم الاجتماعي المتدني، يحول دون استطاعتهم القيام بدور فعال في التغيير الاجتماعي. ولا يمكن تحسين الوضع السائد دون تنويع تدريس المدارس الدينية في تعليم الطلاب المهارات المطلوبة، والتقدير الأكثر وضوحاً لأهمية العدل والخلق الحسن في نظام القيم الإسلامي، إلى جانب منهاج منقح في التعليم الديني، لتمكينهم من تحليل المسائل بطريقة علمية، وتجنب التطرف والنمطيات.

وفي حين أنه يتعين على المدارس والكليات ومؤسسات التعليم العالي تكملة دور الأسرة والمسجد والمدارس الدينية في التنشئة الأخلاقية، فإن دورها

الأساسي هو توفير تعليم عالي الجودة، لا سيما في مجال العلوم والتكنولوجيا، والمهارات اللازمة لتمكين الطلاب من الحصول على فرص أفضل في سوق العمالة، مما يجعلهم يستطيعون المساعدة في تسريع تنمية بلدهم. إن نوعية التعليم في جميع هذه المؤسسات تحتاج إلى تحسين كبير من خلال تغيير مناهجها وتخصيص جزء مهم من موارد الحكومة لها. إن الاستثمار في التعليم بغية تحسين نوعيته سيكون أكثر إنتاجية في المدى الطويل من الاستثمار في مجالات أخرى من الإنفاق، بما في ذلك العتاد العسكري. لقد خلص كيندي Kennedy، -وهو أستاذ في جامعة ييل Yale-، إلى أن الأمم التي تتوسع عسكريّاً بحيث تتجاوز ما تستطيع اقتصاداتها أن تتحمله تبحث عن السقوط.[19]

ثانياً: الإصلاح السياسي

من شأن الإصلاح والترقية الاجتماعية الاقتصادية للبشر أن يكونا أقل صعوبة نسبيّاً، إذا كان النظام السياسي يدعم ذلك أيضاً، إن من شأن الإصلاح السياسي، إلى جانب حرية التعبير ونظام قضائي نزيه ومحاسبة نخبة السلطة، أن يساعد على الأقل في تقليص الفساد وسوء الإدارة السائدين الآن، إن لم يساعد في القضاء عليهما. وهذا من شأنه أن يمكِّن من الاستخدام الفعال للموارد العامة من أجل التعليم والصحة والتنمية الريفية والحضرية؛ مما يؤدي إلى رفعة الأوضاع الاجتماعية الاقتصادية، ومن شأنه أيضاً المساعدة على إدخال الإصلاح الزراعي، الأمر الذي يمكِّن الفلاحين من الحصول على حصة عادلة من إنتاجهم الراهن، ويوفر لهم الموارد التي يحتاجون إليها للحصول على التدريب، إلى جانب البذور والأدوات والأسمدة الأفضل، من أجل زيادة إنتاجهم في المستقبل. وعندئذ سوف يتمكَّن العالم الإسلامي من توليد نوع الفائض الزراعي اللازم، من أجل الاستثمار في التنمية التكنولوجية والصناعية، وفي البنية الأساسية، وهو

(19) Kennedy, *The Rise and Fall of the Great Powers*, p. 536-40.; See also: Toynbee, *A Study of History*, abridgement by D. C. Somervell,Volume 2, p. 370.

الفائض الذي تمكّن العالم الإسلامي من توليده في القرون السابقة، وتمكنت اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان من توليده في التاريخ الحديث. وجدير بالذّكر أنّ الإصلاح الزراعي الذي أدخلته سلطات الاحتلال إلى البلدان آنفة الذكر قد ساعد في تدمير قاعدة سلطة الأسياد الإقطاعيين.[20]

1 - كيفية تحقيق الإصلاح السياسي

السؤال الحاسم هو: كيف يتحقق الإصلاح السياسي في بلدان تتمترس فيها اللاشرعية السياسية، وتستخدم الحكومات جميع أشكال القمع، لكبح أي نضال من أجل الإصلاح السياسي؟ يجب استبعاد النضال المسلح، فهو نادراً ما نجح في البلدان الإسلامية في الماضي، بل هو أقل احتمالاً بأن ينجح الآن في الوقت الذي يتوافر فيه للحكومات وسائل أكثر تقدماً وتعقيداً لقمعه، ولتعذيب المنخرطين فيه وإفقارهم. إن أي جهد يبذل للإطاحة بالحكومات الراهنة، من خلال اللجوء إلى القوة والعنف، يمكن أن يؤدي إلى خسائر ضخمة في الأرواح والممتلكات، وقد يزعزع استقرار المجتمعات، ويفاقم حالات الظلم ويبطئ التنمية والإصلاح، ويزيد المشكلات القائمة سوءاً. ثم إن معاناة الفقراء والمحرومين يمكن أن تكون شديدة لا تطاق، ولا يجدر بالمسلم أن يلقي بنفسه في محنة لا يطيقها".[21]

إن أفضل استراتيجية للإصلاح السياسي هي، النضال السلمي البعيد عن العنف، حتى لو بدا أن ذلك يستغرق الكثير من الوقت. وقد عبر القرآن بوضوح عن تفضيله للحوار من أجل تسوية النزاع؛ إذ قال: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل: 125] كما أكد النبي ﷺ على النضال السلمي

(20) Chapra, *Islam and Economic Development*, p. 175–77.

(21) روى الترمذي في جامعه عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: "لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه"، قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: "يتعرض من البلاء لما لا يطيق"، انظر:
- الترمذي، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، ج4، ص522، حديث رقم 2254.

حينما قال: "من يحرم الرفق يحرم الخير".[22] وقال أيضاً: "إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه".[23] إن تعاليم القرآن وقدوة النبي ﷺ وعِبَر التاريخ كلها ضد اللجوء إلى القوة أو العنف في إحياء الإسلام. ومن الصعب فهم كيف يمكن لشخص ما أن يسمي نفسه مسلماً ثم يقتل أو يشوه الأبرياء في انتهاك واضح للتعاليم الإسلامية، هذا لا يمكن أن يُعدَّ من "الرحمة"، التي يريد القرآن من المسلمين أن يتمثّلوها.

2 – هل يمكن للنضال السلمي أن ينجح؟

يثير هذا في الذهن عدداً من الأسئلة، أحدها: هل يوجد أي أمل للنجاح من خلال النضال السلمي؟ مما يدعو إلى السرور أن عدداً من العوامل تبعث الثقة في المستقبل. إن البيئة الدولية لا تنظر بعين الود إلى الحكومات غير الشرعية فهي حكومات في طريقها إلى الفشل.[24] كما أن البيئة الدولية مناهضة للفساد وتبييض الأموال، الأمر الذي يجعل من الصعب إخفاء الثروة التي تكتسب بطرق غير مشروعة. ثم إن الضغوط المحلية التي تطالب بإدخال الديمقراطية تزداد زخماً في كافة البلدان الإسلامية تقريباً. ولعلّ انتشار التعليم والتحسن التدريجي للوضع الاقتصادي للفقراء سوف يساعد في إضعاف هياكل السلطة الراهنة التي تزدهر في وجود الأمية وفقر الجماهير.

إن ترسيخ الحكومات الديمقراطية، حتى إذا سيطر عليها في بادئ الأمر الأسياد الإقطاعيون، لابد أن يُضعِف هياكل السلطة مع الزمن، بسبب قوة اقتراع

---

(22) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج4، ص2003، حديث رقم 2592.

(23) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج1، ص74، حديث رقم 55.

(24) في 1974م، كان 39 بلداً في العالم ـواحد من كل أربعة ـ ديمقراطيا. واليوم يستخدم 115 بلداً ـ أكثر بقليل من اثنين من ثلاثةـ انتخابات حرة، لاختيار الزعماء الوطنيين (الرقم لعام 1974 مستقى من البنك الدولي، "تقرير التنمية العالمية، 1997م، ص. 111، في حين أن أحدث البيانات اعتباراً من 14 يناير 2004 من Electionworld.org).

جمهور الناخبين. وقد يساعد الضغط على الحكومات المنتخبَة في جعلها تفي بوعودها، وقد يساعد أيضاً على تقليص الفساد والإنفاق العسكري.[25] وتحويل المزيد من الموارد للتعليم والصحة والتنمية، ويتيح أيضاً تنفيذ الإصلاح الزراعي. إن التحسن الناجم في الوضع الاجتماعي – الاقتصادي للفقراء من الريف، الذي يجري الآن جراء الأموال التي يحولها المغتربون من العمال، سوف ينجم عنه بعدئذ طبقة وسطى أوسع نطاقاً وأكثر قوة، وراغبة في النضال من أجل حقوقها بشكل ديمقراطي.

إن العولمة تعمل على كبح الحكومات الاستبدادية، فغياب حرية التعبير محليّاً أصبح يتعرّض بشكل قوي للنقد في وسائل الإعلام الدولية. فانتشار الأنباء، عبر الإذاعات والفضائيات والفاكس وشبكات الإنترنت، أحبط جهود الحكومات القمعية في مراقبة النقد الخارجي، ومَنْع انتشاره بين الناس داخل البلد المكبوت. لذا، فحتى إذا كانت الحكومات لاَ تخضع للمحاسبة محليّاً، فقد أصبحت خاضعة للمحاسبة على فسادها وانتهاكاتها لحقوق الإنسان على الصعيد الدولي. ومع أن هذا غير كاف، إلا أنه سوف يمارس تأثيراً صحيّاً على سير الأحداث في المستقبل.

3 – الصعوبات الكامنة أمام الإصلاح

قد لا يكون إنجاح الديمقراطية في هذه البلدان بالمهمة السهلة، وهذا يعود إلى الموقف الاستبدادي المعاند لدى النخب الحاكمة في الوقت الراهن، والذين ربما سيواصلون استخدام كافة الوسائل المتاحة لهم للفوز في الانتخابات. فمواقفهم قد لا تتغير بسهولة، وقد يحاولون استخدام عدد من الحيل لتجنب

(25) لقد انخفض الإنفاق العسكري العالمي انخفاضاً كبيراً من 1.2 تريليون دولار في عام 1985 إلى 809 مليار دولار في عام 1998. غير أنه ارتفع إلى 950 مليار دولار في عام 2003. وهذا من سوء الحظ لكن يفترض أنه يعود بالدرجة الأولى إلى اجتياح الولايات المتحدة للعراق وحالات العجز الكبير التي أوجدها في الموازنة. ("الإنفاق العسكري العالمي"، 16 يونيو 2004).
(www.globalissues.org/geopolitics/armstrade/spending.asp#worldmilitaryspending)

المحاسبة الحقيقية، لذلك فقد لا يكون هناك فرق مهم بين سلوك الحكام المطلقين والحكام المنتخبين في المرحلة الأولى. غير أن الفرق الحقيقي سوف يأتي تدريجيّاً مع نجاح النضال من أجل رؤية الديمقراطية تلقى الدعم عبر الرقابة الدولية على الانتخابات والصحافة الحرة، فضلاً عن إصلاحات قانونية وسياسية وقضائية تدعو الحاجة الماسة إليها. وأكثر هذه الإصلاحات أهمية هو إعادة تنظيم عملية الانتخاب، وإزالة، أو على الأقل تقليص، نفوذ المال والسلطة والتلاعب في اختيار القادة السياسيين. إن الإنفاق المفرط على الحملات الانتخابية يعمل لمصلحة الأثرياء والأقوياء، وضد المرشحين الجديرين من الطبقة الوسطى، كما أنه يدعو إلى الفساد جراء الجهد الذي يبذله المرشحون الفائزون بعد الانتخابات لاستعادة ما أنفقوه، أو لتقديم المنافع للممولين. إلاّ أن هذا الجهد قد يقابل بمقاومة شديدة، ويستغرق وقتاً لكي ينجح. فالسلطة السياسية الفاسدة التي لا تتمتع بالكفاءة تفاقم الظلم وتفقر الشعب وتعيق التنمية.

إن نظام الأراضي المستأجرة والمملوكة والموروثة تاريخياً يشكل أيضاً عائقاً في وجه الديمقراطية، من حيث كونه من بين الأسباب الأساسية للظلم والتخلف ولعدة مشكلات اقتصادية واجتماعية وسياسية. إن استغلال الفلاحين يجعلهم عاجزين حتى عن توفير الطعام لأنفسهم ولأسرهم، ناهيك عن إفراز فائض لازم للاستثمار في البذور والأدوات والأسمدة المحسَّنة، وإنشاء صناعات صغيرة في المناطق الريفية والحضرية من أجل زيادة الإنتاج والدخل. هذا الاستغلال يؤدي إلى إضعاف نسيجهم الأخلاقي، ويجعلهم يلجأون إلى الغش والكذب، كما أنه يجرح كبرياءهم ويقلص دافعهم إلى العمل، كما أن قدرتهم على الإنتاج وإنتاجهم المتدنيين يقلصان أيضاً قدرتهم على الادخار والاستثمار، ويحرمهم من التعليم والتدريب اللذين يحتاجون إليهما، لزيادة قدرتهم على الإنتاج وتحسين وضعهم الاقتصادي. ولا يستطيع الفلاحون الذين يشكلون الغالبية العظمى من السكان الاقتراع بحرية لانتخاب ممثليهم السياسيين الذين يريدونهم، بينما باستطاعة الأسياد الإقطاعيين التأثير في القوات المسلحة وبيروقراطية الحكومة، فضلاً عن

السلطة القضائية والشرطة من خلال أبنائهم وأقاربهم، الذين يحتلون مناصب مهمة في تلك المؤسسات، واستخدام سلطتهم ومواردهم لكبت كل معارضة. وهكذا، فإن آليات الحكومة برمتها تصبح خادمة لهم ولمصالحهم الشخصية. إن حرمان طبقة الفلاحين لا يؤدي إلى زيادة المدخرات لدى الأسياد الإقطاعيين، فهم إما يبددون دخلهم على الترف والاستهلاك المنافي للذوق أو يستثمرونه في الخارج؛ وهذا يضطر البلد إلى اللجوء إلى الاقتراض الخارجي بنسبة فاحشة، مما يزيد عبء خدمة الديون ويقلص الموارد المتاحة للتنمية.

4 - هل يستطيع العالم الغربي تقديم المساعدة؟

من المؤكد أن العالم الغربي يستطيع أن يقوم بدور حافز في إعادة الديمقراطية وتعزيز النهضة الاجتماعية - الاقتصادية في البلدان الإسلامية، وهذا لا شك لمصلحته في المدى الطويل. إن من شأن ازدياد المحاسبة السياسية أن يؤدي إلى استخدام أكثر جدوى للموارد، من أجل تحسين التعليم وزيادة فرص العمالة والأعمال الخاصة. وهذا، بدوره، من شأنه أن يساعد على تعزيز النهضة الاجتماعية الاقتصادية، ويزيل الصعوبات وانعدام المساواة التي يواجهها الشعب، ويخفف الاضطراب والغليان في العالم الإسلامي.[26]. كما أن من شأنه أن يوسع نطاق السوق من أجل الصادرات المتبادلة. ثم إن ازدياد التجارة من شأنه أن يؤدي إلى المزيد من الترابط والتفاهم، ويحبط جهود جميع الذين تقتضي مصالحهم الشخصية تعزيز الصراع.

لا يستطيع الغرب تقديم المساعدة لإعادة الديمقراطية أو خفض القتال المسلح باستخدام القوة، فالقوة لم ولن تنجح أبداً. إن استخدام الولايات المتحدة وحلفائها القوة في أفغانستان والعراق، واستخدام إسرائيل لها في فلسطين ولبنان بمساعدة

---

(26) لا يمكن للتعليم أن يساعد في خفض الغليان، إلا إذا غرس في نفوس الطلاب الأخلاق الحميدة النبيلة ووفر لهم تلك المهارات المطلوبة لتمكينهم من كسب دخل يكفي لتلبية احتياجاتهم. انظر:
- Krueger, Alan, and Jitka Maleckova. "Education, Poverty and Terrorism: Is there a Causal Connection?" *Journal of Economic Perspectives*, 17: 4, Fall, 2003, p. 119-144.

الولايات المتحدة، أدى إلى قتل غير مسوغ لأكثر من مئة ألف من الأبرياء، وإلى تدمير بنى أساسية مهمّة، وصناعات ومزارع ومدارس ومستشفيات.[27] وبدلاً من إزالة الفقر وتعزيز النهضة الاجتماعية- الاقتصادية والعدل، -وهما ما تحتاج إليه هذه البلدان حاجة ماسة في الوقت الراهن- فإن هذه الهجمات كان لها مفعول عكسي. وهذا يساعد على تعميق الكراهية للغرب، ويهيء أجواءً للمواجهة، ويؤدي إلى صدام الحضارات. وسيكون لهذا تأثير سيء على الجميع، ولا سيما على العالم الإسلامي، لأنه سيبطئ التنمية ووتيرة الإصلاح الاجتماعي- الاقتصادي التي تدعو الحاجة الماسة إليه.

يتعين على الغرب أن يدرك بأن العالم الإسلامي الذي يقدر عدد سكانه من 1.3 إلى 1.8 مليار ليس كياناً كليّاً متجانسًا. ففي حين أن المعتقدات الأساسية يشترك فيها جميع المسلمين، فإنه يوجد تنوع كبير في اللغات والثقافات والأنماط السلوكية. وبالرغم من هذا التنوع، فإن الاتجاه السائد لدى السكان المسلمين كان وما يزال دائماً معتدلاً ومحبّاً للسلام ومتعاوناً، ويسهل التعامل معه.[28] وقد اعترف برنارد لويس Lewis بذلك صراحة إذ قال: "يوجد شيء ما في ثقافة الإسلام الدينية التي تثير في أفقر الفلاحين والباعة المتجولين شعوراً بالنبل والكياسة نحو الآخرين لا يفوقه أبداً -ونادراً ما يضارعه- أي شعور في حضارات أخرى."[29]

يوجد، متطرفون ومقاتلون في المجتمع الإسلامي مثلما يوجد في أي مجتمع

---

(27) إن عدد الذين قتلتهم الولايات المتحدة وحلفاؤها يفوق كثيراً عدد الذين قتلهم المغول، الذين كانوا يعدون في غاية القسوة. يتراوح عدد الذين قتلهم المغول عندما اجتاحوا بغداد والمناطق المحيطة بها في 656هـ/ 1258م بين 200000 و 800000. انظر:

- Morgan, "Mongols.", p. 231.

(28) أنظر: أيضاً:

- Esposito, John L. *The Islamic Threat: Myth or Reality?* Oxford: Oxford University Press, 1992.

(29) Lewis, Bernard. "The Roots of Muslim Rage." *The Atlantic online*, digital edition, Parts I and II, September 1990, part 11, p. 8.

آخر في العالم، ولا تجوز المبالغة في وجود المتطرفين في المجتمع الإسلامي، لأنهم يشكلون أقلية ضئيلة من المجموع، كما أن المقاتلين من بين المتطرفين يشكلون نسبة أقل. إن المسلمين يمقتون ما يفعله المقاتلون لأنه يعد انتهاكاً واضحاً للتعاليم الإسلامية. إن القرآن يساوي بين قتل شخص بريء واحد وقتل البشر جميعاً.[30] كما أنه يدين الفساد[31] الذي يشمل جميع أنواع الجريمة، بما في ذلك التدمير غير المسوغ للحياة والممتلكات، وعدم الوفاء بالالتزامات الاجتماعية – الاقتصادية، وكل شيء يؤدي إلى الفوضى والخوف وعدم الأمان والبؤس.[32] لذا، فإن المساواة بين الإسلام أو المسلمين، و"الإرهاب" أو "الفاشية" يبتعد كل البعد عن الإنصاف، وهو مهين ويثير الغيظ والغضب، وسيزيد من سوء النوايا والتوتر.

ويتعين على الغرب أيضاً أن يضع نصب العين أن جميع شعوب العالم يحبون دينهم وقيمهم وثقافتهم، وأنهم لن يقبلوا أي مفهوم موحد للعولمة،

---

(30) قال الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: 32].

(31) يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، [البقرة:11]، ويقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، [البقرة:27]، ويقول تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، [الأعراف:56]، ويقول تعالى:﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، [الأعراف:85]، ويقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، [الرعد:25]، ويقول تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، [الشعراء:151–152].

(32) انظر الآيات القرآنية التي وردت فيها كلمة "الفساد" تحت الجذر "فسد" في المصحف المفهرس لمحمد فؤاد عبد الباقي. انظر أيضاً:

– AbuSulayman, *Crisis in the Muslim Mind*, p. 139–141.

بصرف النظر عما إذا كانوا في الصين أو اليابان أو الهند أو العالم الإسلامي. لذا، فإن العالم الإسلامي ليس فريداً في هذا الصدد. فأي جهد يبذل لفرض ثقافة غريبة غير مقبولة لابد أن يقابل بالمقاومة. كما يتعين الأخذ بالحسبان أن التحديث أو العولمة ليسا بالضرورة صنو "المماهاة بالغرب Westernization". ومما لا شك فيه أن اعتماد التكنولوجيا الحديثة أمر لابد منه للتنمية. ولا يغيب عن الوعي أن التكنولوجيا هي نتيجة تراكم مساهمات عدة حضارات، بما في ذلك الحضارات الصينية والهندية والبيزنطية والساسانية والإسلامية. فإذا كانت التكنولوجيا غير غربية، فما الذي يعنيه التشبه بالغرب؟ هل هي القيم؟ إنّ كلّ بلد له الحق في التمسك بقيمه، ويجب الترحيب بذلك، لأنه يضيف تنوعاً وثراء إلى أطياف العالم الاجتماعية والثقافية. وهذا لا يعني أن ما هو جيد في ثقافات أخرى لا يجب اعتماده عن طيب خاطر، فالتاريخ يشهد أن المسلمين كانوا دائماً يفعلون ذلك.

مما لا شك فيه أن للمسلمين، -مثل الشعوب الأخرى- نقاط ضعفهم ولكن هذه لا علاقة لها بالإسلام ويجب إزالتها. ويمكن تحقيق هذا الأمر تدريجيّاً، من خلال التنشئة المناسبة والتعليم، والنهضة الاجتماعية الاقتصادية والإصلاح السياسي. إن تحقيق التغيير الاجتماعي من أصعب المهام وأكثرها استغراقاً للوقت، ومعظم الأدبيات المتعلقة بالتغيير الاجتماعي تدل على أن التغيير لا يمكن أن يحدث إلا تدريجيّاً. وهذا يقتضي وجود درجة عالية من الصبر، ويملي على الحكومات والمؤسسات التعليمية وحركات الإصلاح الاجتماعي تنسيق جهودها إذا أرادت أن تنجح.

ويتعين على الغرب أن يدرك أنه يوجد الآن الكثير من سوء الفهم تجاهه في العالم الإسلامي، بسبب الحروب الصليبية والهجمات الوحشية على الإسلام وعلى النبي ﷺ.[33] ولقد كان من المتوقع أن تخف وطأة هذه الهجمات، -التي

(33) للاطلاع على تحليل جيد للتوترات بين الإسلام والغرب، انظر (لا سيما الفصل الثاني):
- Esposito, *The Islamic Threat: Myth or Reality?*

حصلت خلال القرون العديدة الماضية-، في عصر العولمة، لكن هذا لم يحصل لسوء الحظ؛ فالهجمات لم تزدد فحسب، بل أصبحت أكثر وحشية. وهذا أدى إلى تعميق التوتر وزاد من تفاقم سوء الفهم السائد. إن ما يتعين على الغرب فعله هو تغيير استراتيجيته عبر اعتماد ثلاثة تدابير توجد حاجة ماسة إليها:

أ - الإقلاع عن مهاجمة الإسلام، عبر التأكيد على المعتقدات والقيم المشتركة للمسيحية والإسلام.

ب - تقديم المساعدة التي يحتاج إليها العالم الإسلامي كثيراً من أجل تسريع النهضة الاجتماعية - الاقتصادية.

ت - تعزيز الإصلاح السياسي.

ومن حسن الحظ أن هذا بدأ يحدث إلى حد ما؛ إذ إنه يوجد عدد من العلماء الذين دأبوا على التأكيد على المعتقدات والقيم المشتركة بين المسيحية والإسلام. يقول ريتشارد بولييت (Richard Bulliet) إن هذين الدينين أخوان ولا يوجد بينهما اختلاف جوهري، إلى درجة أنه يمكن القول بأنه يوجد "حضارة إسلامية مسيحية."[34] ويقول لويس Lewis بأنه يوجد أكثرية ذات شأن من المسلمين "الذين نشترك معهم في معتقدات وطموحات أساسية: ثقافية وأخلاقية، اجتماعية وسياسية."[35] بل يذهب إلى حد القول: "لقد جاء الإسلام بالراحة وهدوء البال لملايين لا تعد ولا تحصى من الرجال والنساء. لقد أضفى الكرامة والمعنى على حياة المكتئبين والفقراء. لقد عَلَّم الناس من مختلف الأجناس العيش في جو من الأخوة، وعَلَّم الناس من مختلف العقائد أن يعيشوا جنباً إلى جنب في جو من التسامح المعقول. فقد كان مصدراً مهمّاً لحضارة عظيمة عاش فيها آخرون إلى جانب المسلمين حياة مبدعة ومفيدة، أثرت منجزاتها في العالم بأسره[36]. فإذا

(34) Bulliet, *The Case for Islamo-Christian Civilization*.

(35) Lewis, Bernard. "The Roots of Muslim Rage.", part 1, p. 2.

(36) Ibid.

كان يوجد هذا القدر الكبير مما هو مشترك بين الديانتين، يستطيعان أن يقدماه لبعضهما بعضاً، فلم لا يتم التأكيد على الحاجة إلى التعايش السلمي بدلاً من صدام الحضارتين.

وقد أخذت المساعدات الإنسانية تتوالى وهذا يساعد قضية النهضة الاجتماعية – الاقتصادية. وعلاوة على ذلك، هناك عدد كبير من المسلمين الذين يدرسون ويعملون في بلدان غربية. ولقد ساعدت الأموال التي يحولها المغتربون إلى بلدانهم في تعزيز النهضة الاجتماعية – الاقتصادية. ويمكن أن يتعزز هذا عبر زيادة المساعدة في إزالة الفقر والبطالة. ولو أن الولايات المتحدة قد حولت مليارات الدولارات التي أنفقتها من أجل تدمير أفغانستان والعراق إلى تنمية هذين البلدين، لكانت قد حققت ما كانت تصبو إليه. ويستطيع الغرب أيضاً المساعدة في تحقيق الإصلاح السياسي عبر مراقبة الانتخابات، وتعزيز الإصلاح القانوني والمؤسساتي. هذه المساعدة سوف توجِد مناخاً أفضل من أجل تسريع الإصلاح، والتعاون المتبادل والتعايش السلمي.

5 – هل يستطيع الإسلام القيام بدور حافز ثانية؟

يبرز أمر حاسم هنا، بشأن ما إذا كان إحياء الإسلام الجاري في العالم الإسلامي يمكن أن يقدم أي مساعدة في إصلاح المجتمعات الإسلامية وتطويرها. وإذا ما كان يستطيع مساعدتها في تحقيق العدل والإصلاح اللازمين في المجال الاجتماعي– الاقتصادي والسياسي، مثلما فعل في العهد الكلاسيكي (القديم) ومساعدتها في مواجهة التحديات التي تجابهها في العالم الحديث. ويبدو أنه يوجد إجماع في العالم الإسلامي يؤيد إمكانية تحقيق هذه المتطلبات. وقد اعترف بذلك رامزي كلارك (Ramsey Clark) المدعي العام في الولايات المتحدة في إدارة الرئيس ليندن جونسون، حين صرح بأن الإسلام: "هو ربما القوة الروحية والأخلاقية الأشد تأثيراً في الأرض اليوم."[37] وقد يعود هذا إلى

(37) Clark, Ramsey. *Interview with Impact International*. London, UK, December 10, 1997.

أن الإسلام هو الحقيقة الوحيدة الحيّة في العالم الإسلامي، التي لها من التأثير القوي ما يجعلها تجتذب الجماهير وتوحدهم بالرغم من تنوّع أعراقهم وثقافاتهم وتحفزهم على التصرف المستقيم بالرغم من مرور عدة قرون من الانحطاط. إن لدى الإسلام برنامجه الخاص من أجل الإصلاح الشامل: الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي، والسياسي، الذي يعد أنسب لهذه البلدان من أي برنامج يمكن استيراده من الخارج. إن تأكيده القوي على القيم الأخلاقية وبناء الشخصية والعدل الاجتماعي الاقتصادي ومحاسبة السلطة السياسية وحكم القانون، المقترن باستراتيجيته التي تعتمد استخدام التعليم والحوار من أجل تحقيق التغيير، لابد أن يكون نعمة للعالم الإسلامي. فهو يشجع على بساطة العيش، الأمر الذي يساعد على تقليص الاستهلاك المنافي للذوق، وبذلك يُضْعِف واحداً من الأسباب الرئيسة للفساد وتدني المدخرات والاستثمار. ويمكن أيضاً أن يساعد في أن يغرس في الناس عدداً من الصفات المرغوب فيها مثل الصدق والأمانة والدقة في المواعيد، والتصرف بوحي من الضمير والهمة والاقتصاد والاعتماد على الذات، والتسامح والوفاء بالعقود، وكافة الالتزامات الاجتماعية الاقتصادية والاهتمام بحقوق الآخرين ورفاههم، وهي صفات لازمة لتعزيز التنمية والعدل. والإسلام يولي الأسرة والتضامن الاجتماعي أهميّة بالغة، وهي أمور أساسية من أجل بقاء المجتمع، ناهيك عن تطوره. كما أنه يتصف بالمرونة الكافية التي تمكنه من التكيف مع الظروف المتغيرة.

بما أن الإحياء الإسلامي أصبح ظاهرة عميقة الجذور في العالم الإسلامي، فإن أي جهد يبذل لتقويض الإسلام وزرع العلمانية مكانه، من شأنه أن يجعل استخدام القوة أمراً لازماً. ومن شأن هذا أن يكون له نتائج مأساوية في العالم الإسلامي، مثلما حدث في الماضي، عندما حاول المأمون واثنان من خلفائه أن يفرضوا على الناس معتقدات المعتزلة، التي عدَّها العلماء مناهضة للشريعة. لقد أفضى هذا الاستخدام للقوة، إلى سلسلة من ردود الفعل ابتليت بها المجتمعات الإسلامية حتى يومنا هذا. وبالقدر نفسه من شأن استخدام القوة أن يفاقم الصراع

الاجتماعي، ويحرض على العنف حتى في الأزمنة الحديثة. وعندما يحدث ذلك، فسوف يصعب السيطرة عليه. والأسوأ من هذا أيضاً، أن مكان الإسلام قد تشغله الفلسفة المادية وفلسفة المتعة، التي من شأنها أن تعزز الاستهلاك المنافي للذوق، والإباحية الجنسية، والاستغراق في إشباع الملذات الذاتية. وهذا من شأنه أن يضعف النسيج الأخلاقي أيضاً، ويشجع على العيش بما يتجاوز الإمكانات، ويفاقم الفساد، ويقلص المدخرات والاستثمار، ويزيد حالات اختلال التوازن سوءاً، ويزيد حدة الظلم، ويضعف التضامن الأسري والاجتماعي. أما نتائج ذلك على التطور والنهضة الاجتماعية الاقتصادية فلا يصعب تصورها.[38]

إن أول محاولة قاسية في الأزمنة الحديثة لتقويض الإسلام قامت به حكومة إسلامية في بلد ذي أغلبية مسلمة كبيرة قد جرى في تركيا. وهذا أدى، إلى الإفراط في إسناد الحكومة للعسكريين، الذين مارسوا سلطة حقيقية بالرغم من إظهار الواجهة الخارجية المزيفة للديمقراطية؛ فقد قامت على نحو استبدادي بتنحية حكومات منتخبة حسب الأصول أربع مرات خلال الأربعين سنة الماضية، في الأعوام:1960م و1971م و1981م و1997م. وبالرّغم من استخدام الجيش القوةَ والقسوة لتقويض الإسلام، فإنها لم تنجح. فاليوم يتمتع الإسلام في تركيا بحركة لإحيائه: "إذا وجدت رغبة كمالية (نسبة إلى كمال أتاتورك) بأن يتلاشى الإسلام، فإنه لن يتلاشى، ومن غير المحتمل أن يتلاشى في المستقبل، حيث أنه من المتوقع أن تزدهر حقوق الإنسان بدلاً من أن تتناقص."[39]

---

(38) Richards, Alan. "Explaining the Appeal of Islamic Radicals." *Global Policy Briefs* No. 1. Santa Cruz, CA: Center for Global, International and Regional Studies (University of California), January, 2003; and Etzioni, Amitai. "Religious Civil Society is Antidote to Anarchy in Iraq and Afghanistan." *The Christian Science Monitor*, 1 April, 2004, www.csmonitor.com/2004/0401/p09501-coop.html.

(39) Mehmet, Ozay. I*slamic Identity and Development: Studies in the Islamic Periphery*. London: Routledge, 1995, p. 125.

حتى في إيران ما قبل الثورة، نجم عن الجهود التي بذلها الشاه لفرض طريقة الحياة والتقاليد الغربية في إيران الكثير من الاستياء ضده وكانت إحدى الأسباب الرئيسة التي أدت إلى الثورة. انظر:

لقد استمر –دون توقف– غياب المحاسبة، وإساءة استخدام الموارد العامة، وكلاهما كانا سبب تخلف تركيا. لقد حافظت تركيا، –وهي بلد نام– على جيش أكبر من أي من قوى حلف الناتو (منظمة حلف شمال الأطلسي) باستثناء الولايات المتحدة، الأمر الذي أدى إلى معدل نمو عال جدّاً بواقع 7% في الإنفاق على الدفاع خلال الخمس سنوات بين 2002م و2006م مقارنة بـ 2.5% و2.9% بالنسبة للمملكة المتحدة والولايات المتحدة خلال الفترة ذاتها. وكنسبة من الناتج المحلي الإجمالي (3.4)، فإن إنفاقها على الدفاع أعلى من إنفاق أي بلد عضو في الناتو باستثناء الولايات المتحدة (3.8%).[40] وهكذا فقد عانت تركيا من حالات عجز كبيرة في الموازنة، أكثر مما كان سائداً في الماضي في أثناء أيام السلاطين الفاسدين. وهؤلاء كانوا يموَّلون عن طريق الاقتراض فضلاً عن طريق التوسع النقدي. غير أن حالات العجز لم تكن تستخدم بطريقة مثمرة جراء الفساد والإفراط في الإنفاق العسكري وسوء الإدارة. كان أعلى بند في الموازنة هو المبالغ التي تدفع فوائد تصاعدت لتصل إلى 79% من عائدات الحكومة من الضرائب في عام 2001م.[41] وكما هو متوقع، انعكست حالات العجز في الموازنة لتكون من أعلى معدلات التضخم في أنحاء العالم: 32.1% سنويّاً بين عام 1961م وعام 2000م مقارنة بـ 6.2% في منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OECD، و8.2% في شرق آسيا و26% في أمريكا اللاتينية.[42] وهكذا فقد كان يوجد انخفاض شديد في معدل

Algar, Hamid. "The Oppositional Role of the `Ulama' in Twentieth Century Iran." In Nikki R. Keddie (ed.), Scholars, Saints, and Sufis. Berkeley: University of California Press, 1972; Graham, R. *Iran: The Illusion of Power*. New York: St. Martin's Press, 1979, and Arani, S. "Iran: From the Shah's Dictatorship to Khomeini's Demagogic Theocracy." *Dissent*, winter 1980, p. 9–26.

(40) See the Defence Expenditures of NRC Countries (1985–2006), Tables 2, 3 and 6 (www.nato.int/docu/pr/ 2006/p06–159e.htm).

(41) International Monetary Fund (IMF). Turkey at the Crossroad: From Crisis Resolution to EU Accession. Occasional Paper No. 242 prepared by a team led by Reza Moghadam, Washington, DC: IMF, 2005, Table 5.1, p. 34.

(42) Ibid., Table 2.3, p. 7.

الصرف، الذي انخفض من 3 و9 ليرات للدولار الواحد في عام 1950م وعام 1960م إلى 2234642 في ديسمبر عام 2002م.[43] ففي أي جانب كانت حكومات الجنرالات "العلمانيين" تختلف عن فساد السلاطين؟ إن جهد العسكريين للتخلص من الإسلام باسم العلمانية لم يسفر عن شيء سوى المزيد من الفساد السياسي، والتضخم والصراع الاجتماعي. وقد أوردت مقالة في صحيفة النيويورك تايمز أن: "الأحزاب العلمانية التي كان يُفضّلها العسكريون قد فشلت في غرس جذور شعبية عميقة، وينظر إليهم بشكل متزايد بأنهم لا يهتمون بشكلات الأتراك العاديين وأنهم مستهلكون في عمليات الثأر الشخصي والفساد."[44]

وقد أوصلت العلمانية بلداناً إسلامية أخرى إلى أوضاع أسوأ أيضاً. ففي حين أن الإطار الأساسي الديمقراطي والقضائي في تركيا ظل قائماً، فقد كان الحكّام في بعض البلدان الأخرى أكثر قسوة وأقل تورعاً من أي حاكم يمكن تصوره. فلا يكاد يوجد أي حرية للتعبير في تلك البلدان، فكثرت فيها المظالم وانتهكت حقوق الإنسان. وفي بعض هذه البلدان، كانت توجد إمكانات كبيرة للتنمية، لكنها انهارت بسرعة وساء وضع الناس إلى درجة تبعث على الجزع.

6 - الإصلاح في فهم الإسلام

إن حقيقة أن الإسلام لم يكن سبباً في انحطاط المسلمين لا تعني بالضرورة أنه لا يوجد حاجة للإصلاح في الفهم الحديث للإسلام. ويبدو أن تأكيد الإسلام على العدل والأخوة بين البشر والتسامح، قد ضعف كثيراً في أوساط بعض شرائح المجتمعات الإسلامية، مثلما خف التأكيد على بناء الشخصية الأخلاقية. وقد يعود هذا -إلى حد بعيد- إلى عوامل تاريخية نشأت في بلدان تسودها اللاشرعية السياسية، وتفتقر إلى المرافق التعليمية، وتتدنى فيها الأوضاع

(43) IMF, *International Financial Statistics*, CD-ROM, and Yearbook 2004, p. 4.

(44) Reproduced by the *International Herald Tribune*, 26 March 1996, p. 6, from the editorial entitled 'Civilian Rule for Turkey' in the *New York Times*.

الاجتماعية- الاقتصادية، وتكثر فيها المظالم، فضلاً عن الاحتلال الأجنبي طويل الأمد. ويتعذر تصحيح الوضع دون إيجاد فهم مناسب للإسلام. وهذا من شأنه أن يحتاج إلى تغيير كبير في مناهج المؤسسات التعليمية، ولا سيما مناهج المدارس الدينية. فيتعين على المناهج المنقحة زيادة التأكيد على مقاصد الشريعة والخلق الحسن.

ومع أن المقاصد تشكل روح التعاليم الإسلامية، إلا أنها دُفِعَت إلى الخلف في القرون القليلة الأخيرة؛ لذا يتعين إرجاعها إلى الصدارة، بغية تهيئة الجو لفهم أفضل للقرآن والسنة، وهو ما سيساعد على إطلاق الفقه من أغلال التقليد الأعمى للأحكام السابقة، التي كانت تصدر في ظروف مختلفة كل الاختلاف عن الواقع الحالي، ويمكنه من استعادة الحيوية التي اتسم بها في القرون الأولى للإسلام. فمن دون ذلك، قد يتعذر النجاح في مواجهة التحديات التي يواجهها العالم الإسلامي في الأزمنة الحديثة، حيث تختلف الظروف كليّاً عن تلك التي كانت تواجه الفقهاء السابقين. وهذا سوف يساعد على إعادة البريق المتميز للتعاليم الإسلامية، عبر المساعدة في تقليص اختلافات الرأي السائد، فضلاً عن الصراعات والتعصب وعدم التسامح، والتأكيد غير المسوغ على المظاهر التي برزت إلى حد كبير نتيجة إهمال المقاصد في تفسير النصوص. لقد أصاب إمام الحرمين أبو المعالي الجويني (توفي 478هـ/ 1085م) بتأكيده: "إن كل من لا يفهم دور المقاصد من حيث أوامرها ونواهيها المتضمنة في الشريعة يفتقر إلى البصيرة في تنفيذها."[45]

إن تدني التأكيد على المقاصد قد أدى إلى زيادة استخدام الحيل الفقهية في تفسير النصوص، بالرغم من معارضة عدد من العلماء البارزين."[46] ففي الوقت الذي يُسمَحُ فيه باستخدام الحيل بغية تخفيف المشاق في الظروف العسيرة، تمشياً مع أهداف الشريعة، فإن الإفراط في اللجوء إليها سيؤثر -عن غير قصد- في إحباط

(45) الجويني، أبو المعالي. **الغياثي: غياث الأمم في التياث الظلم**، تحقيق: فؤاد عبد المنعم ومصطفى حلمي، الإسكندرية: دار الدعوة، 1979م، مج1، ص295.

(46) ابن تيمية. **بيان الدليل على بطلان التحليل**، مرجع سابق، ص137.

تحقيق المقاصد. يستنكر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، -وهو فقيه مرموق- هذا الواقع، قائلاً: "إن الغالبية العظمى من القضايا في أصول الفقه أصبحت تقتصر على اشتقاق الأحكام من كلمات المُشَّرِع بدلاً من استخدامها لخدمة أهداف الشريعة."[47] إن النتيجة غير الصحية للإفراط في اللجوء إلى الحيل هي أن "العديد من العلوم الدينية، بما في ذلك أصول الفقه، فقدت الروح الحقيقية التي كان يُستفاد منها في الفترات السابقة. إن إحياء هذه الروح هو أكثر الضرورات الحاسمة لبعث المعرفة الدينية."[48] وهذا التأكيد على المقاصد يجب أن يقترن بزيادة أهمية بناء الأخلاق، تمشياً مع قول النبي ﷺ بأن "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً."[49] وهذا سوف يساعد في غرس الفضائل الأخلاقية في المسلمين، وهي التي أكّدها الإسلام، ولكنها أصبحت ضعيفة في المجتمعات الإسلامية اليوم. من الأهمية بمكان أيضاً إعادة التركيز على عدد من أحاديث النبي ﷺ، من بينها اثنان: "الخلق عيال الله، وأحب عباد الله إلى الله أنفعهم لعياله.[50]" و"لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا."[51] هذا سوف يساعد على تغيير الموقف تجاه غير المسلمين، الذين هم أيضاً خلفاء الله مثل المسلمين، ويتعين معاملتهم بالعدل والإحسان[52]. كما أن هذا سيهيء الجو للمزيد من التسامح وإقامة علاقات ودية معهم. إن إصلاح أخلاق المسلمين في ضوء هذه التعاليم وغيرها الواردة في

---

(47) ابن عاشور، محمد الطاهر. **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، الأردن: دار النفائس، ط2، 1421هـ/2001م، ص166.

(48) أبو الفضل، عبد السلام. **التجديد والمجددون في أصول الفقه**، القاهرة: المكتبة الإسلامية، 2004م، ص576-7.

(49) سبق تخريجه صفحة ( ) من هذا الكتاب.

(50) البيهقي، **شعب الإيمان**، مرجع سابق، ج6، ص43، الحديث رقم 7445.

(51) الترمذي، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، ج4، ص364، حديث رقم 2007.

(52) يقول الله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾، [الممتحنة:8].

القرآن والسنة، سوف يمُكّن المسلمين من القيام ثانية بتحقيق رسالة النبي ﷺ في كونه (رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ).

هذا الإصلاح في فهم الإسلام يمكن أن يحدث عبر حوار ودي بين العقلانيين المعتدلين والتقليديين المعتدلين، وكلاهما يعترف بدور الوحي فضلاً عن العقل في حياة البشر. إلاّ أنه إذا حاولت الحكومات فرض العلمانية باستخدام القوة، فإن النتيجة لن تؤدي إلا إلى تصلب المواقف، مما سيلحق الأذى بالحوار ويبطئ الإصلاح اللازم. يجب أن يقتصر دور الحكومة على إيجاد جو من التصالح من أجل الحوار، لتساعد على إيجاد ألفة بين الحكومة، من جهة، والعلماء والشعب من جهة أخرى. وقد تكون النتيجة أيضاً تدني المقاومة للتغيير. وهذا قد لا يسهّل إدخال التغييرات في أحكام الفقه فحسب، بل أيضاً يساعد على إيجاد مناخ يحفّز على التنمية.

7 – دور الحركات الإسلامية

من شأن الحركات الإسلامية أن تكون أكثر نجاحاً إذا حاولت أن تحبب الناس بنفسها، في مجتمعاتهم وفي العالم بأسره، بأن تكون نعمة لا خطراً. ولا يمكنها القيام بذلك إلا إذا كانت ممثلة جديرة للإسلام، وقدوة أخلاقية حسنة، وتتجنب الصراع الداخلي والخارجي والمجابهة قدر الإمكان. يتعين أن نأخذ بالحسبان أن أسلمة المجتمعات وتنميتها بعد قرون من الانحطاط مهمة صعبة، لا يمكن أن تتحقق إلا تدريجيّاً، من خلال الكثير من العمل الجاد المقترن بالحكمة والصبر. وبما أن الموارد البشرية والمادية المتاحة لهذه الحركات محدودة جدّاً، فإنه لا يسعها المبالغة في التمدد.[53] يجب عليها وضع أولويات إذا كانت تريد أن تنجح في أسلمة مجتمعاتها وتنميتها وتحقيق المقاصد:

---

(53) يرى محسن عبد الحميد أن الحركات الإسلامية تحاول أن تحقق أكثر بكثير مما تسمح به مواردها. وهذا أحد أسباب إخفاقاتها وتراجعها ووضع أنفسها في فك أعدائها. انظر:

– عبد الحميد، محسن. **تجديد الفكر الإسلامي**، هيرندون: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1996م، ص198–9.

أ - يجب أن تكون أولى أولوياتها وأهمّها تعليم الناس، وتنشئتهم على المعايير الأخلاقية السامية التي يطلبها الإسلام من أتباعه، فهذه هي خطوة الانطلاق نحو أسلمة مجتمعاتها. من دون ذلك، فإن النور الذي ترغب في إلقائه على مجتمعاتها لن يكون له البريق اللازم. فالدولة الإسلامية التي تهدف تلك الحركات إلى تأسيسها، لا يمكن أن تتحقق من دون الحد الأدنى من الرفعة الأخلاقية التي يتوخاها الإسلام. وهنا يبرز سؤال مفاده: متى سيكون بوسع الحركات الإسلامية تحقيق السمو الأخلاقي لذلك العدد الهائل من السكان؟ قد لا يكون هذا ضروريّاً على الفور. فإذا استطاعت تحقيق التغيير من أخلاق أقلية كافية، فإن الباقين سيحذون حذوهم. يقول القرآن: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: 249] وقد سبق لتوينبي (Toynbee) أنْ أكد أنَّ: "كل نمو ينشأ عن أفراد مبدعين أو أقليات صغيرة من الأفراد تكون مهمتهم.. تحويل المجتمع إلى طريقة الحياة الجديدة تلك."[54] وعندما تثبت الأقلية المبدعة جدارتها، فإن باقي الشعب لا يسعه إلا اتباعهم. فالمهمة الفورية للحركات الإسلامية، إذن، إثبات جدارتها، واكتساب الاحترام وإعادة الاعتبار لنفسها لدى جماهيرها، ولدى العالم بأسره.

ب - أمّا أولوية الحركات الإسلامية الثانية، فلا تقل أهمية عن الأولى؛ إذ يجب عليها تحقيق الارتقاء الاجتماعي- الاقتصادي بالقضاء على الأمية والفقر، وإتاحة التعليم عالي الجودة للفقراء، وزيادة توافر التمويل الصغير فضلاً عن فرص العمل والعمل الحر (الخاص)، والمساعدة، قدر الإمكان، في حل مشكلات جميع الناس، بصرف النظر عما إذا كانوا مسلمين أو لم يكونوا، لكنها لا تستطيع تحقيق ذلك وحدها، فلا بد من ممارسة الضغط على الحكومة، ومحاولة حشد موارد القطاع الخاص بأقصى استطاعتها لهذا الغرض. وهذا سوف يساعد الجميع على إدراك أن إحياء الإسلام سوف ينجم عنه تحسين حياة الجميع، ويكون نعمة للجميع، تساعد في تعزيز التعايش السلمي لجميع الناس

(54) Toynbee, *A Study of History*, abridgement by D. C. Somervell,Volume 2, p. 364.

في المجتمع. إن برنامجاً من نوع البرامج ذات التوجه نحو خدمة المجتمع هو وحده، -وليس مجرد الشعارات- ما سوف يساعد في تقليص الجريمة والصراع، وغرس رسالة الإسلام المركزية بشأن الأخوة البشرية والعدل والرفاه للجميع.

ج - أما الأولوية الثالثة، فيجب أن تكون النضال من أجل تحقيق الإصلاح السياسي وحرية التعبير وحقوق الإنسان. لهذا الغرض، لا حاجة للاشتراك في الانتخابات مباشرة. يمكنها أن تفعل ذلك إذا أرادت. غير أنه يجب عليها أن تضع نصب أعينها بأن هذا سيضعها دون مسوغ في حالة صراع ومجابهة مع الحكومة، فضلاً عن الأحزاب الأخرى، ويجعلها غير فعالة في تحقيق أهدافها. وبما أنه قد يمضي وقت طويل قبل أن توصل نفسها إلى السلطة في كثير من البلدان، فقد يكون من الأفضل لها أن تكون على وئام مع جميع الأحزاب، وأن تسعى للحصول على مساعدتها في تحقيق أي من الإصلاحات السياسية والقضائية والترقية الاجتماعية-الاقتصادية، التي يستطيعون تحقيقها دون أن يكونوا في السلطة.

فمن دون إيجاد مثل هذا الجو الودود، لا تتمكن الحركات الإسلامية من الحصول على التعاون من أجل الإصلاح الذي تحتاج إليه، والذي سوف تظل تحتاج إليه، حتى حين تأتي هي نفسها إلى السلطة. فالبيروقراطيات المدنية والعسكرية الفاسدة والمصالح الخاصة الريفية والحضرية القوية، لن تمكنها من النجاح دون مساعدة جميع الفئات ذات النوايا الحسنة. فمن خلال استخدام الحكمة والمواقف الودية، قد تتمكن من تحصيل الشيء الكثير، حتى من خصومها العنيدين، كما قال النبي ﷺ: "وإن الله تعالى ليؤيد الدين بالرجل الفاجر."[55]

د - القيام بمحاولة لإيجاد تفاهم أفضل بين مختلف الجماعات الإسلامية، وتحقيق إجماع بشأن مختلف الإصلاحات التعليمية والاجتماعية والاقتصادية

---

(55) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، انظر:
- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج3، ص1114، حديث رقم 2897.
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج1، ص105، حديث رقم 111.

والسياسية، من خلال الحوار، وذلك باتباع ما يطرحه القرآن بشأن القيام بالدعوة أولاً إلى كلمة سواء بيننا وبينكم.[56] وهذا يقتضي تأسيس فريق من المفكرين الاستشاريين المبدعين، يضم مندوبين مؤهلين ومن أصحاب النوايا الحسنة من جماعات اجتماعية، واقتصادية، وسياسية ودينية مختلفة. إن من شأن برنامج يقوم بوضعه هذا الفريق أن يمُكّنهم من حشد دعم كتلة أكبر من جماهير الشعب.

هـ - إنشاء علاقات ودية مع البلدان والمجتمعات الأخرى، ويتعين عليها أن تدرك بأن غير المسلمين يمثلون ما يقارب أربعة أخماس سكان العالم، وهم، شأنهم في ذلك شأن المسلمين، لا يشكلون كلاً متجانساً. وفي حين أن بعضهم مناهضون للإسلام كليّاً، فإن الباقي ليسوا بالضرورة مثلهم. إن سلوكنا نحوهم هو الذي يحدد موقفهم منا، فكلما لجأنا إلى المجابهة والقتال، أصبحوا أكثر عداوة لنا. ومع أنه حصلت هجمات ظالمة على الإسلام والمسلمين من قبل الغرب، فإن وصية القرآن للمسلمين هي: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: 34]. ويقول القرآن أيضاً: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: 186]. لقد أصاب مراد هوفمان (Murad Hofmann)؛ إذ قال: "إني لا أعرف اقتراحاً أفضل من حث العالم الإسلامي أن يصبح "أصوليّاً" بالمعنى الأصلي للكلمة - أي العودة إلى الأسس الحقيقية للعقيدة الإسلامية، وتحليل العوامل التي كانت مفيدة بالنسبة لتجارب المدينة والأندلس والعباسيين"[57].

---

(56) يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾، [آل عمران:64].

(57) Hofmann, Murad Wilfried. "Backwardness and the Rationality of the Muslim World.", p. 86.

انظر أيضاً: العلواني، طه جابر. **إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات**، هيرندن، واشنطن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1412هـ/1991م.

8 - إمكانيات النجاح في المستقبل

تبدو إمكانيات النجاح في المستقبل مبشرة بالخير، لأن عملية عكس حركة التيار التي كان يريدها ابن خلدون قبل 600 عام يبدو أنها جارية الآن. وهناك عدد من المؤشرات الحاسمة التي توضح ذلك، أحدها تراجع اللا شرعية السياسية. وقد أصبح الآن الدور الاستبدادي للجنرالات في تركيا في السياسة التركية ضعيفاً، جراء التزام البلد بالانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، والنجاح الذي أحرزه حزب العدالة والتنمية ذو التوجه الإسلامي في الانتخابات، والذي، كما أوردت صحيفة الإيكونومست (Economist)، "سن عدداً من التشريعات الإصلاحية"، وأحدث "ثورة صامتة" في سياسة تركيا واقتصادها، وتمكن بذلك، من زيادة قاعدة تأييده.[58] وقد جاء بحكومة نظيفة وفعالة نسبيّاً، حققت -إلى جانب حكمته المالية- فائضاً رئيسيّاً في الموازنة. وهذا ما ساعد في تقليص عبء الدَّين، وخفض تخفيضاً شديداً معدل التضخم إلى مستويات خانة واحدة للمرة الأولى منذ 30 سنة. وقد مكن هذا تركيا من إصدار ليرة جديدة، حذف منها ستة أصفار من الليرة السابقة. وقد ارتفع الناتج المحلي الإجمالي لتركيا بمعدل متوسطي صحيّ يفوق 8% سنويّاً في عامي 2004م و2005م. هذا كله شجع صندوق النقد الدولي على القول بأن "حظ الاقتصاد التركي قد تحول."[59]

لقد شهد الحكام المستبدون في عدد من البلدان سقوطهم، ومن المتوقع أن يلقى آخرون المصير نفسه. وعلاوة على ذلك، فإن جميع البلدان الإسلامية تقريباً قد استقلت عن السيطرة الأجنبية، ولديها الحرية في اعتماد سياسات تعمل لمصلحتها. كما ازداد الوعي كثيراً لدى الجمهور بأنهم بحاجة إلى "حكم رشيد" بغية تخفيف عدد من الصعوبات، وهذا جعلهم يدركون وجود

---

(58) *The Economist*, 18 September 2004 and 22 January 2005, p. 13 and 32 respectively.

(59) للاطلاع على صورة أكثر تفصيلاً للتحول الذي طرأ على الاقتصاد التركي، انظر:

- International Monetary Fund (IMF). *Turkey at the Crossroad: From Crisis Resolution to EU Accession*.

الحاجة للمحاسبة السياسية. ومن المأمول أن يشهد المستقبل تقدماً سريعاً نحو الديمقراطية الحقيقية في جميع البلدان الإسلامية، بصرف النظر عما إذا كانت استبدادية أو ديمقراطية زائفة. وهكذا، فإن اللا شرعية السياسية آخذة في التراجع في العالم الإسلامي. وحتى البلدان الصناعية الرئيسة، التي ازدهرت هذه اللا شرعية السياسية بسبب دعمها المعنوي والمادي، أدركت الآن، -على ما يبدو- أن انتشار الديمقراطية هو أيضاً في مصلحتها طويلة الأمد. إن الأفق يوحي بوجود حركة نحو الديمقراطية، إلى جانب الإصلاحات الزراعية وحرية الصحافة، ووجود قضاء قوي ومستقل، ونمو مؤسسات فعالة وغير متحيزة من أجل اكتشاف الفساد وعدم الفعالية ومعاقبة الفاسدين.

لابد من أن يعود انتشار الديمقراطية بالفائدة من عدة مجالات:

أ - لا بدّ أن يساعد في تعزيز الاعتدال في مواقف الأحزاب السياسية العلمانية والدينية، التي عليها أن تحظى برضا جميع قطاعات السكان إذا كانت لا ترغب بالشعور بخيبة الأمل في صناديق الاقتراع. وبما أن لدى الجماهير ارتباطاً عاطفيّاً بالإسلام، فإن الجهود التي يبذلها العلمانيون لإيجاد ثنائية بين المقدس والعلماني، من النوع الذي جرى في الغرب، سوف تبوء بالفشل. كما أنه من المحتمل أن تفشل المعتقدات التقليدية المتطرفة، لأنها لا تنسجم مع الإطار التعددي للمجتمعات الديمقراطية الحديثة.

ب - لا بدّ أن يساعد في إدراك الأمر الإلزامي الإسلامي بالعدل الاجتماعي-الاقتصادي ورفاه الجميع نتيجة الضغط السياسي على كل الأحزاب، للقضاء على الفقر والبؤس، وأن تشمل نطاقاً واسعاً من الإصلاحات الاجتماعية-الاقتصادية والقضائية والسياسية في بياناتها الرسمية.

ج - لا بدّ أن يُمكِّن النساء من الدفاع عن حقوقهن والحصول عليها بصيغة أكثر فعالية، وهو ما سيمكنهن من الحصول على تعليم أفضل، سوف يساعدهن، في تحقيق تنشئة مناسبة لأطفالهن، وبذلك يقمن بإلغاء أحد أسباب انحطاط المسلمين، ويساهمن مساهمة ثرية في تطوير مجتمعاتهن.

د – لابد أن يؤدي إلى المزيد من الاستقامة في استخدام الموارد الحكومية، ووضع الأولويات، واستخدام بعض الاستراتيجيات الأكثر واقعية. وهذا سوف يعزز –في خاتمة المطاف– استخدام الموارد العامة من أجل تطوير الشعب ورفاهه عبر القضاء على الأمية، وتحسين المرافق الصحية وإنشاء البنى الأساسية، وليس من بينها الطرق السريعة والمباني التي يتم إنشاؤها على سبيل التفاخر، وتحقيق التنمية السريعة والمتوازنة العادلة لهذه البلدان.

بناء على ذلك، لابد للبيروقراطيات العلمانية الفاسدة والعقائد التقليدية المتطرفة أن تتراجع. الأولى بسبب اقترانها بإيديولوجية غير مقبولة من الشعب، علاوة على فسادها وعطالتها، وولائها للمصالح الخاصة الداخلية والخارجية. والثانية بسبب افتقارها إلى فهم صحيح للإسلام، فضلاً عن تعقيدات الاقتصادات الحديثة، ونظرتها التي تنطوي على الشك في كل ما هو أجنبي، ورفضها الاستفادة من استراتيجيات ناجحة تطبق في أماكن أخرى. وهذا يجب أن يفضي إلى استحداث استراتيجية تعزز التنمية والعدل.

وهكذا، سوف تجبر الديمقراطيةُ الأحزابَ العلمانية والدينية على اتخاذ آراء معتدلة، لكي تكون مقبولة من قطاعات أوسع من السكان، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة التسامح، وتقليص الآراء المتطرفة. وعلاوة على ذلك، فإن إحياء الإسلام الجاري الآن لابد أن يجعل من الممكن جعل التقدم المادي يقترن بارتقاء أخلاقي، وعدالة وانسجام اجتماعي، وهي أمور مهمة من أجل توفير رأس المال المعنوي والأخلاقي اللازم، لتحقيق التنمية المستدامة. وسوف يلقى ذلك أيضاً المزيد من الدعم إذا أدرك العلماء والنخبة السياسية دور المقاصد في تفسير النصوص. ويدل الارتفاع المستمر لعدد الكتب والبحوث عن المقاصد بأن هذا قد بدأ، وعندما يزداد زخم هذا كله، فإنه سيساعد على تحقيق التغيير اللازم في فهم الإسلام. وقد بدأ الطابع الحقيقي للمسلم أيضاً يلقى المزيد من التركيز في كتابات عدد من العلماء ومواعظهم.

وبعبارة أخرى، هناك عدد من المؤشرات تدل على حصول عكس دائرة ابن خلدون المتعلقة بالسببية الدورية، من الاتجاه السلبي إلى الاتجاه الإيجابي. لذا، من المناسب أن نختم بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:139].